أجيالُ السيّد.. حين تجتمعُ الأرضُ والسماءُ في مشهد العهد والبيعة

الوفاق
د. أكرم شمص

في زمنٍ تتكاثر فيه الروايات عن الانكسار، وتتناسل فيه التوقّعات عن تعب البيئة وتراجع حضور المقاومة، خرج لبنان من صمته ليقدّم للعالم مشهدًا بحجم التاريخ والإيمان معًا.

من الجنوب المقاوم إلى البقاع الهادر، ومن الضاحية إلى الشمال، تدفّقت الوفودُ الكشفيّة حاملةً رايات الإمام المهدي(عج) إلى جانب العلم اللبناني، في لوحةٍ وطنيةٍ أعادت رسم صورة المجتمع الذي أراد البعض طمسه أو إضعافه.

لم يكن الاستعراض مجرّد حدثٍ تربويٍّ أو عرضٍ تنظيميّ، بل رسالة سياسية – روحية مركّبة تقول بوضوح: هذه بيئةٌ مازالت حيّة، وهذه أجيالٌ لم تنسَ مَن ربّاها على الصبر والانتصار.

إنّه التجمُّع الكشفي الأكبر في تاريخ لبنان وربما في تاريخ الحركة الكشفية عالميًّا، حيث احتشد ٧٤,٤٧٥ كشفيًّا وكشفيّة من جمعية كشّافة الإمام المهدي(عج) في المدينة الرياضية في بيروت تحت شعار «أجيال السيّد»، في عرضٍ مهيبٍ اختلط فيه النظام بالرمز، والطفولة بالرسالة، والإيمان بالفعل السياسيّ الميدانيّ. غير أنّ ما كان يُرى فوق الأرض لم يكن سوى المظهر الخارجيّ لقصةٍ أعمق من مجرّد عرضٍ كشفيٍّ منظم.

إنّها قصةُ بيئةٍ تربّت على الانتظار الفاعل، ومجتمعٍ يصرّ على أنّ الإيمان ليس طقسًا بل سلوكًا، وأنّ المقاومة ليست بندقية فقط، بل منظومة وعيٍ متكاملةٍ تزرع في كل بيتٍ قناعةً بأنّ النصر لا يُمنح، بل يُصنع.

المبايعة للشيخ قاسم: استمرارية القيادة ووحدة المسار

في خضمّ الحشود المهيبة التي ملأت المدينة الرياضية، برزت اللحظة المفصلية في المبايعة العلنية للأمين العام لحزب الله سماحة الشيخ نعيم قاسم، والتي لم تكن مجرّد إجراءٍ رمزيٍّ أو مشهدٍ بروتوكوليّ، بل تجديدًا عميقًا للولاء وتجسيدًا عمليًا لاستمرارية القيادة ووحدة المسار بعد رحيل الشهيد الأسمى السيّد حسن نصر الله (رضوان الله عليه). كانت البيعة رسالةً واضحةً بأنّ الراية لم تسقط، بل انتقلت بأمانةٍ إلى يدٍ لا تقلّ ثباتًا أو صلابة، وأنّ الخطّ الذي رُسِم بالدم سيُستكمل بالوعي والإرادة.

خاطب الشيخ قاسم الكشفيين بصفاء الأب وعمق المربي، مؤكدًا أن كشافة الإمام المهدي(عج) «هي الكشافة التي تعمل لتربية الأجيال من أجل الوصول إلى الأسمى، وهي نورُ هدايةِ الشباب إلى النموذج التربوي الأسمى... أنتم المستقبل المشرق، أنتم أجيالُ السيّد».

ثمّ مضى مبيّنًا أن المقاومة ليست خيارًا عسكريًا فحسب، بل مشروعًا تربويًا وثقافيًا وأخلاقيًا وسياسيًا، وأنها تبدأ من جهاد النفس قبل مواجهة العدوّ، لأنها «قوةُ إيمانٍ وإرادةٍ وموقفٍ وصمودٍ وعزٍّ واستقلال.»

وفي وصيّةٍ أبويةٍ نابضة بالعاطفة والقداسة، دعاهم إلى «الإيمان الخالص لله، وبرّ الوالدين، والتحصيل الديني والعلمي، وأن يكونوا من جند الإمام المهدي(عج)»، قبل أن يختم بالقول: «لي الفخر أن أكون بينكم، أحبّكم، وأتمنى أن نكون معًا بانتظار الإمام المهدي (عج)». لقد كانت تلك اللحظة نقطة التقاءٍ بين الأجيال الثلاثة للمقاومة: جيل المؤسسين، وجيل القادة، وجيل الأبناء، إذ أعادت صياغة المعنى الأعمق للولاء، ولاءٌ يتجاوز الأشخاص إلى الفكرة، ويتخطّى المرحلة إلى الرسالة، ويؤكد أنّ خطّ السيّد باقٍ حيٌّ في الأجيال التي تربّت على نوره وهَدْيه.

شكّل المشهد رسالةً إلى العدوّ بأنّ الجيل الجديد لم يُربَّ على الخوف، بل على الثبات والإيمان بالوعد الإلهي

الجرحى في الصفوف الأولى.. والرسالة التي لا تُكسر

بين الأعلام والصفوف المنتظمة، برز الجرحى الكشفيون، ولا سيّما جرحى «البيجر»، الذين اختاروا أن يكونوا في مقدّمة الاستعراض لا في مقاعد المتفرجين، ليقولوا للعالم إنّ الجراح في ثقافتهم ليست عجزًا بل شرف، وإنّ الألم يمكن أن يتحوّل إلى طاقة نورٍ تسقي الأجيال. كانت وجوههم المضيئة تختصر الرواية كلّها: جيلٌ قاتل، وجيلٌ جُرح، وجيلٌ يتعلّم أنّ الكرامة تُصنع بالثمن لا بالخطاب. هذا المشهد جسّد المعنى الأوسع الذي عبّر عنه ساحة الشيخ نعيم قاسم حين قال: «أنتم على خيار المقاومة، ونحن نقصد المقاومة الأشمل والأوسع، فهي خيارٌ تربويٌّ ثقافيٌّ أخلاقيٌّ سياسيٌّ».. فالمقاومة هنا لا تختزل في مواجهة العدو بالسلاح، بل في بناء الإنسان المقاوم في فكره وسلوكه وانتمائه؛ ولهذا تبدو كشّافة الإمام المهدي(عج) أبعد من كونها جمعية كشفية تقليدية، إنها مشروع مجتمع مقاوم بكل معنى الكلمة، يصوغ الوعي منذ الطفولة ليصنع جيلًا لا يعرف الاستسلام ولا الهزيمة. هذه الرؤية التي رسّخها حزب الله منذ عقود تتجدّد اليوم بقوّةٍ مضاعفة بعد محاولاتٍ متكرّرةٍ لفصل المقاومة عن بيئتها وتشويه صورة انخراط الشباب فيها، فجاء الردّ من الميدان نفسه: عشرات الآلاف من الفتيان والفتيات المنضبطين الذين يمثّلون وجه المقاومة التي تصلّي وتتعلم وتزرع وتحمي في آنٍ واحد.

المشهد في عيون العدوّ والدلالات السياسية والاجتماعية

لم يكن التجمّع الكشفيّ المهيب حدثًا عابرًا في لبنان، بل مشهدًا مدوّيًا حمل أصداءه إلى الداخل والخارج معًا. فقد أكّد الحدثُ تعافي المقاومة بعد عامين من الحرب والاستهدافات والاغتيالات والحملات الإعلامية، وأثبت أنّها مازالت قادرةً على استنهاض جمهورها وتنظيم عشرات الآلاف من الفتية والشباب في لوحةٍ من الانضباط والإيمان والولاء. وكان تعبيرًا صادقًا عن الثقة المتبادلة بين القيادة والبيئة الشعبية، إذ انخرط الأهالي بأنفسهم في إرسال أبنائهم والمشاركة في التنظيم، ما دلّ على أنّ الرابط بين الحزب وبيئته لم يُكسر، بل ازداد متانةً وعمقًا.

كذلك شكّل المشهد رسالةً إلى العدوّ بأنّ الجيل الجديد لم يُربَّ على الخوف، بل على الثبات والإيمان بالوعد الإلهي؛ بل إنّ هؤلاء الكشفيين باتوا -بقول الشهيد الأسمى- هم الذين يُرعبون العدوّ بوعيهم وإيمانهم قبل سلاحهم. وعليه ركّزت وسائل إعلام صهيونية إلى وصف هذا التجمع بـ«عرضٍ للقوّة في قلب لبنان يؤكّد أن حزب الله لم ولن يُسلّم سلاحه»، واعتبرت كشافة الإمام المهدي(عج) «أخطر الأذرع التربوية التي تخرّج المقاتلين الذين يهدّدون وجود الكيان».

ولعلّ هذا الوصف -رغم عدائيته- يُشكّل اعترافًا ضمنيًّا بخطورة الجيل التربويّ الجديد، لا لكونه يحمل السلاح فقط، بل لأنّه يحمل العقيدة والفكر والإيمان بالنصر. فالخطر الحقيقي بالنسبة للعدوّ ليس في الصواريخ وحدها، بل في المدرسة التي تصنع الرجال الذين يطلقونها، وفي الأجيال التي تُربّى على الثبات والكرامة واليقين.

الخاتمة: لبنان يُعيد تعريف ذاته

ما جرى في المدينة الرياضية لم يكن احتفالًا عابرًا أو نشاطًا داخليًا لجمعيةٍ أو حزب، بل حدثًا وطنيًّا جامعًا أعاد إلى لبنان صورته الحقيقية التي حاول كثيرون تشويهها. ففي زمن الانهيار المالي والسياسي والاجتماعي، خرج من بين الركام لبنان آخر: لبنان التنظيم والإيمان والولاء والانضباط، لبنان الذي يعرف كيف يصنع الفرح من قلب الألم، ويحوّل الخطر إلى مناسبةٍ للنهضة والتجدد. لقد أراد البعض أن يكتب نهاية الحكاية، فإذا بالجيل الجديد يكتب فصلًا جديدًا منها، جيلٌ يهتف بثقةٍ ووعي: «حن أجيالُ السيّد، وأبناءُ الأمين القاسم، على العهد باقون».

هؤلاء هم الجيل الذي وعد السيّد بأنه سيحمل الراية حتى ظهور الإمام المنتظر(عج)، الجيل الذي يُعيد للبنان وجهه المقاوم والإنساني في آنٍ واحد، ويؤكد أن هذا الوطن لا يُختزل بالأزمات، بل يُقاس بقدرته على النهوض من تحتها. ولعلّ الرسالة الأبلغ التي حملها هذا اليوم التاريخي هي أنّ الأمم التي تُربّي أبناءها على الإيمان والانضباط لا تُهزم، وأنّ البيئة التي راهنوا على إنهاكها مازالت -كما وصفها السيّد يومًا- «أشرف الناس، وأطهر الناس، وأكرم الناس».

رغم سريان وقف إطلاق النار

شهداء وجرحى بنيران جيش الاحتلال في قطاع غزة

على الرغم من سريان وقف إطلاق النار في القطاع في يومه الخامس، أفادت مصادر فلسطينية باستشهاد ٦ مواطنين وإصابة آخرين، الثلاثاء، في قصف الاحتلال مدينتي غزة وخان يونس.

وفي سياق متصل، اقتحمت قوات الاحتلال منازل عدد من الأسرى المحررين في الضفة الغربية المحتلة، كما أزالت صور الشهداء والأسرى من ضاحية شويكة في طولكرم. وكانت المقاومة الفلسطينية قد أفرجت عن ٢٠ أسيراً صهيونياً، في حين أفرجت القوات الصهيونية عن ١٩٦٨ أسيراً فلسطينياً.

وذكر مكتب إعلام الأسرى أن ١٥٤ أسيراً فلسطينياً تم نقلهم إلى مصر تنفيذاً لقرار إبعادهم.

الاحتلال يقصف مدينتي غزة وخان يونس

ميدانياً، أفادت مصادر بمستشفى المعمداني: إن ٥ مواطنين استشهدوا جراء إطلاق طائرات صهيونية مسيّرة من طراز «كوادكوبتر» النار على مواطنين كانوا يتفقدون منازلهم في حي الشجاعية شرقي مدينة غزة. يأتي ذلك في وقت زعم فيه جيش العدو في بيان أنه أطلق النار «لإزالة ما زعم أنه تهديد بعد رصد» مشبوهين «حاولوا تخطي الخط الأصفر في قطاع غزة»، حسب قوله.

وفي شمال القطاع، أفاد مصدر في الإسعاف والطوارئ بإصابة فلسطينيين بنيران جيش الاحتلال في منطقة حلاوة بجباليا البلد.

وفي جنوب القطاع، ذكرت مصادر فلسطينية أن شخصا استشهد وآخرين أصيبوا بنيران مسيّرة صهيونية في بلدة الفخاري شرق خان يونس، في وقت أفاد فيه مجمع ناصر الطبي بإصابة شخصين بنيران قوات الاحتلال بخان يونس.

هذا وأطلقت الدبابات الصهيونية النار بشكل مكثف على فلسطينيين شمال غرب مدينة رفح. كما أفادت مصادر فلسطينية بإطلاق نار من آليات جيش الاحتلال الصهيوني وتحليق لطائرات مسيّرة في منطقة الشاكوش شمالي رفح.

ودخل اتفاق وقف إطلاق النار في غزة حيز التنفيذ يوم الجمعة الماضي، وفي إطار المرحلة الأولى منه انسحبت قوات الاحتلال إلى ما سمي الخط الأصفر، ولا تزال تحتل أجزاء من القطاع.

حماس: «إطلاق النار يعدّ انتهاكاً للاتفاق»

وتعليقاً على استشهاد ٦ فلسطينيين، قال الناطق باسم حركة المقاومة الإسلامية «حماس» حازم قاسم: إن استهداف جيش الاحتلال عددا من أهالي قطاع غزة صباح الثلاثاء عبر القصف وإطلاق النار يعد انتهاكا لاتفاق وقف إطلاق النار.

ودعا قاسم الأطراف المختلفة إلى متابعة سلوك قوات الكيان الصهيوني، وعدم السماح لها بالتهرب من التزاماتها أمام الوسطاء في ما يتعلق بإنهاء الحرب على قطاع غزة.

انتشال أكثر من ٢٥٠ جثماناً لشهداء القطاع

في غضون ذلك، قال المتحدث باسم الدفاع المدني في غزة محمد بصل الثلاثاء إنه تم انتشال أكثر من ٢٥٠ جثمانا لشهداء منذ وقف الحرب. وأشار المتحدث إلى أن بعض هذه الجثامين كانت ملقاة في الشوارع. وتابع: أن أكثر من ١٠ آلاف شخص لا يزالون تحت ركام المباني المدمرة، موضحاً أن الدفاع المدني لا يملك الوسائل للوصول إليهم.

وقال المتحدث باسم الدفاع المدني في غزة إنهم يواجهون عجزاً كبيراً في المعدات الثقيلة للتعامل مع الركام.

وأشار بصل إلى أن مخلفات الحرب والمواد المتفجرة تشكل خطراً كبيراً على حياة المواطنين. وبحسب تقديرات الأمم المتحدة، هناك ما لا يقل عن ٥٥ مليون طن من الأنقاض في غزة. ووفق حصيلة جديدة نشرتها وزارة الصحة بغزة، خلّف العدوان الصهيوني المدعوم أميركياً ٦٧ ألفا و٨٦٩ شهيدا، و١٧٠ ألفا و١٠٥ مصابين منذ السابع من أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٢٣.

جاهزية الطواقم الطبية لاستلام جثامين الشهداء

بدورها، أعلنت وزارة الصحة في غزة عن جاهزية الطواقم الطبية، من خلال لجنة إدارة جثامين الشهداء، لاستلام جثامين الشهداء المتوقّع الإفراج عنها من قبل الاحتلال، والتعامل معها وفق الإجراءات الطبية والبروتوكولات المعتمدة في مثل هذه الحالات.

وأكدت الوزارة، في بيانها، أنه تمّ تجهيز فرق الطب الشرعي والإسعاف والطواقم التمريضية والفنية لضمان إتمام عمليات الاستلام والفحص والتوثيق والتسليم إلى ذوي الشهداء بما يليق بقدسيّة الموقف وكرامة الشهداء الأبرار. وشدّدت وزارة الصحة على أنّ كوادرها تواصل أداء واجبها الإنساني والمهني رغم الظروف القاسية والإمكانات المحدودة، وفاءً لرسالتها في حفظ كرامة الإنسان حيّاً وشهيداً.

مداهمات واقتحامات في الضفة المحتلة

بالتزامن، اقتحمت قوات الاحتلال الصهيوني، فجر الثلاثاء، نابلس وطوباس في الضفة الغربية، بعد ساعات من إتمام عملية الإفراج عن مئات الأسرى الفلسطينيين في إطار اتفاق تبادل الأسرى وإنهاء الحرب على غزة.

وأفادت وسائل إعلام فلسطينية بأن قوات الاحتلال اقتحمت شارع الجامعة في مدينة نابلس، كما اقتحمت مخيم عسكر الجديد ومخيم بلاطة شرقي المدينة، من دون أن يُبلغ عن اعتقالات. كما دهمت قوات الاحتلال مدينة طوباس وبلدة طمون الواقعة جنوبيها. وبثت وسائل إعلام فلسطينية مشاهد لآليات الاحتلال وهي تقتحم المدينة.

وفي وقت سابق، اقتحمت قوات الاحتلال مدينة قلقيلية. وذكرت وكالة الأنباء الفلسطينية «وفا» أن الآليات العسكرية الإسرائيلية دهمت منطقة السوق وسط المدينة وحي شريم والمنطقة الغربية ولم يُبلغ عن اعتقالات.

وقد استقبل الفلسطينيون في الضفة الغربية الاثنين عشرات من الأسرى المحررين بموجب اتفاق التبادل بين حركة المقاومة الإسلامية (حماس) والكيان الصهيوني.

واقتحمت قوات الاحتلال منازل عدد من الأسرى المحررين وحذرت عائلاتهم من إقامة أي مظاهر احتفالية.

الفاشي بن غفير يقتحم الأقصى

من جهة أخرى، اقتحم وزير الأمن القومي الصهيوني إيتمار بن غفير، لثلاثاء، ساحات المسجد الأقصى المبارك، كما اعتدت قوات الاحتلال الصهيوني على ممتلكات المواطنين وحولت منازل إلى ثكنات عسكرية.

واقتحم بن غفير باحات الأقصى الشريف للمرة الثانية خلال أسبوع، رفقة عشرات المستوطنين، لإحياء ما يسمى عيد «بهجة التوراة» وأدى المستوطنون خلال الاقتحامات طقوسا وصلوات تلمودية، في ظل استمرار منع شرطة الاحتلال الصهيوني المصلين من دخول المسجد المبارك خلال فترات الاقتحام.

من جهتها، أدانت وزارة الخارجية الأردنية «بأشد العبارات» اقتحام بن غفير للأقصى، واعتبرت ذلك انتهاكا صارخا للوضع القانوني والتاريخي القائم، وتدنيسا لحرمة المكان المقدس، وتصعيدا خطيرا واستفزازا غير مقبول.

وأكد الناطق الرسمي باسم الوزارة فؤاد المجالي رفض المملكة القاطع لهذه الاقتحامات المتكررة، وحذر من محاولات فرض واقع جديد بالقوة عبر التقسيم المكاني والزماني للمسجد الأقصى، وطالب حكومة الاحتلال الصهيوني «بصفتها القوة القائمة بالاحتلال» بوقف هذه الانتهاكات والممارسات الاستفزازية.

وفي السياق، اقتحمت قوات الاحتلال مخيم قلنديا شمال مدينة القدس المحتلة، وأطلقت الرصاص الحي وقنابل الغاز المسيل للدموع تجاه الشبان، قبل أن تنسحب من المخيم في وقت لاحق من صباح الثلاثاء.